التراث بين الماضي والمستقبل

التراث هو ما يرثه كل مجتمع أو شعب عن أجداده من فكر وتقاليد وأعراف وعلوم ومعتقدات وقيم وعمران، وغير ذلك من أشياء مادية وثقافية. وبسبب تقادم كل زمن، فإن كل تراث يتقادم كذلك؛ ومع تقادم الزمن يفقد التراث صلاحيته، ويصبح غير صالح للاستخدام كمنظومة فكرية أو رؤية علمية لصنع المستقبل، أو نظام لتسيير شؤون الناس. مع ذلك، يلعب التراث دورا كبيرا او صغيرا في حياة الشعوب التي انتجته، ما يستوجب النظر إليه بوصفه شيئا يستحق المراجعة، والاستفادة مما قد يكون لديه من حكم وعبر ما تزال صالحة للاستعمال. أما النظر إلى التراث بوصفه كنز أفكار وتجارب صالحة لكل زمان، فهذه نظرة خاطئة ترى الماضي حاضرا، ما يجعلها تهمل الحاضر وعلومه ومعضلاته النابعة من زمنه وظروف حياته؛ الأمر الذي يجعله يُسهم في تكريس تخلف كل مجتمع يرى الماضي حاضرا، ويرى التراث صالحا لكل زمان.

إن محاولات توظيف الماضي لإدارة شؤون الحاضر، واستخدام قيمه وتقاليده وأفكاره وانجازاته مقياساً للحكم على قيم وتقاليد وأفكار الحاضر وانجازاته، هي تصرفات غير علمية تعكس مواقف غير عقلانية، تضر ولا تنفع. نعم، إن من الممكن، ومن المُستحسن أيضاً، توظيف انجازات التراث العلمية وحقب التاريخ الماضوية العظيمة كأدوات لتحفيز الناس على العمل والمثابرة إسوة بما فعل الأجداد، وذلك من أجل تحقيق النهوض، واللحاق بركب الحضارة الإنسانية، والاستحواذ على أدوات التعامل مع الغير من الدول بكرامة وندية.

تراث الامم والشعوب يشبه الأطعمة المعلبة والمجمدة، فهذه أشياء لها عمر افتراضي لا تتجاوزه، ما يجعل من المحظور استخدامها بعد انقضاء ذلك العمر، لأن صلاحيتها تكون قد انتهت بانتهائه. وتشير المعلومات العلمية عن الأطعمة المحفوظة والأدوية إلى أن فوائدها تتناقص مع تقادمها، وأن بعضها يتحول بعد انقضاء فترة صلاحيته بقليل إلى مواد سامة تلحق الضرر بصحة من يستهلكها من البشر. وكذلك هو الحال بالنسبة للتراث الذي جعلته وتيرة التقدم العلمي يتقادم بشكل يومي. إن فترة صلاحية تراث كل مجتمع تتحدد بمقدار تغير ظروف الحياة في المجتمع ومدى تراكم المعارف العلمية والتكنولوجية والتحولات الثقافية والاجتماعية التي تشهدها الإنسانية جمعاء. وإذا كان الفقراء يجدون أنفسهم أحيانا مضطرين لأكل طعام معلب فقد صلاحيته والمخاطرة بصحتهم، لأنه ليس لديهم خيار آخر، فإن المحتالين من التجار يجدون في الطعام المعلب الذي فقد صلاحيته فرصة لإيهام عامة الناس بأنهم يقدمون لهم ما طاب من الطعام.

وكما هي الحال بالنسبة للفقير الذي يرى في الطعام التي نفذت صلاحيته مخرجا لازمة عدم وجود طعام في البيت، يرى التراثيون في المخزون الثقافي من معتقدات وقيم مترسخة في وجدان الأمة مخرجا لكل أزمة. فهؤلاء ينظرون إلى كل واقع حياتي لا يعكس رؤيتهم للأمور بوصفه واقعا سيئا من النواحي الأخلاقية أو الاجتماعية أو الثقافية، ما يجعلهم ينظرون إلى التراث بوصفه سراجا ينير ظلمات الحاضر، ويحدد الطريق إلى المستقبل. لكن الطريق الذي تقود إلى التراث هو طريق

للهروب من الواقع، وليس أداة علمية للتعامل مع تحدياته. وهذا يجعل التراثيين يدخلون المستقبل من باب الخروج من الحاضر، والسير إلى الخلف وتحاشي المواجهة مع تحديات الزمن.

المعرفة والتراث

المعرفة هي حصيلة العلوم والتكنولوجيا الصناعية، والأفكار والنظريات العلمية، والتجارب الحياتية، والمعلومات التي تطورت وتجمعت عبر آلاف السنين من خلال قيام الإنسان بمحاولة السيطرة على بيئته الطبيعية، وتنمية اقتصادياته، وتطوير مجتمعاته، وتحسين مستويات معيشته. وتأتي هذه المعارف نتيجة لعمل الإنسان الدءوب على اكتشاف اسرار الكون والحياة والأمراض والظواهر الطبيعية مثل الزلازل والبراكين والعواصف وغير ذلك من أمور. لذلك تعتبر التراكمية أهم خصائص المعرفة المتعلقة بالعلوم والمعلومات والتكنولوجيا بشقيها الصناعي والإداري. ولما كانت الأزمنة تتتابع، والمعرفة تتراكم، فإن الجديد من المعارف يكون أكثر قدرة على التعامل مع الواقع وتحدياته من المعارف المماثلة التي تطورت في أزمنة سابقة. نتيجة لسنة الكون والتطور هذه، تتراجع قدرة التراث على التعامل مع الواقع وتحدياته، لأنه يتقادم مع توارد الأيام وتتابع السنين. وهذا يعني أن التراث هو ذلك الجزء من المعرفة الذي تقادم بفعل الزمن وفقد صلاحيته نتيجة لتغير معطيات الحياة وظروفها وتحدياتها، وما انتجه الإنسان من علوم ومعارف جديدة عبر العصور.

مع ذلك، من الممكن أن يكون التراث، كطريقة في الحياة، صالحا جزئيا لمن يعيش في الزمن الذي أعطى ميلادا له، وللفئات الاجتماعية التي تقرر أن تخرج من الحاضر وتختار الرجوع إلى الماضي بقيمه وعاداته وتقاليده. وهذه أقليات تتكون في العادة من فئات اجتماعية ثقافية تعيش حياة شبه بدائية، في عزلة شبه كاملة عن غيرها من مجتمعات تعيش في الزمن وتتبنى نظم حياته وقيمه، وتسعى لتحقيق النهضة والتقدم واللحاق بالدول التي سبقتها على مضمار الحضارة.

إن اتجاه أمة إلى النظر إلى تراثها بوصفه الخيار الذي لا بديل له للخروج من مأزق تعيشه، أو أداة لتحقيق نهضة تخلصها من واقع متخلف، هو محاولة بائسة ويائسة لارجاع عقارب الزمن إلى الخلف مئات أو آلاف السنين، والتنازل عن انجازات كثيرة ساهمت كل شعوب الأرض في تحقيقها. إن كل المعارف التي تطورت في الأزمنة القديمة لا تغني عن عشر ما هو موجود اليوم، ما يجعل الرجوع إلى الماضي والبحث عن انجازاته والاعتماد عليها بمثابة الوقوع في مصيدة تجعل المجتمع المعني فريسة سهلة لكل طامع يعيش في العصر ويعي منطق تاريخه.

وهذا يعني أن الدعوات التي يُطلقها بعض المثقفين التقليديين من العرب بين الحين والآخر مطالبين بالعودة إلى منابع الفكر العربي وطريقة حياة العرب القديمة، هي محاولة لاختصار الزمن وانجازات الإنسانية في انجازات عربية اسلامية متواضعة جدا، جاء جميعها في أولى مراحل تطور العلوم والمعارف. وبسبب كون المعارف العربية هذه قد جاءت في مراحل تأسيس معرفية شبه بدائية، فإنها لا تشكل إلا بضع أحجار في أساسيات بناية عملاقة تُناطح السحب، إسمها المعرفة الإنسانية؛ وهذه معرفة تشمل العلوم الطبيعية والتطبيقية والبيئية والصحية، وعلوم الفضاء

والاقتصاد والإدارة والتعليم والموسيقى والفنون التي أسهمت كل الأمم في تطويرها على مدى قرون لا حصر لها. إن التراث العربي المعرفي بكل فروعه ومكوناته، وإن كان جزءا هاما من المعرفة الإنسانية، إلا أن استمرار عمليات التطور الحضاري في مختلف نواحي الحياة تجاوزته منذ أكثر من 500 سنة، ما يجعل الارتكان إليه هو ارتكان إلى فرع طري من شجرة معرفية عملاقة لا تكاد جذورها تصمد في وجه الرياح العاتية التي تعصف بها من كل جانب.

د. محمد ربيع www.yazour.com